إيمان و أمومة

من رسائل أم سليم
إلى مسلمات القرن الحادي والعشرين

فاطمة محمد شنون - سورية

أجمل ما قدمت إلي الدنيا أَنَساً، أنجبته «لمالك بن النضر» مع بدايات بشائر النور التي كانت تومض في أم القرى، وراح يكبر بين ذراعي كما تتسع خطا النور في طريقها إلى القلب، ولم أدر أيهما كان يستنفر الآخر، الشوق إلى أفق الحق البهي، أم عظمة الأمومة وسموها !

الإيمان، والأمومة... أروع ما في الدنيا أن تطوي امرأة صدرها عليهما معا... هكذا تكون ثَمَّ (نبيّة)... (نبيّة) تحمل نور الله، وتشعر بعمق أنها مسؤولة عن تبليغه إلى أمة كاملة مكنونة في هذا الكيان الرقيق الذي يتسع له حجرها، وتضمه ذراعها... أتراه سر وحدة الجذر اللغوي بين (الأم) و (الأمة) في لغة القرآن العظيمة !

هكذا عانق في القلب نورُ الله نورَ الأمومة، فلم آبه لكون ما أفكر فيه يحتاج إلى قوة تصدم الواقع الراسخ من حولي، بما في ذلك زوجي. غلبني على الخوف والتحسب لخطوتي إحساس قاهر أن هذا النور مني وأن محمد بن عبد الله قد استخرجه كله من أعماق امرأة تعيش هنا بين نخيل يثرب ورمالها، وأنه كان في أعماقها منذ بدأ قلبها النبض.وهكذا قمت بما أحسست أنني ينبغي أن أقوم به، فأسلمت مع رسول الله... كان ذلك تلقائيا ونهائيا، مثلما تطلع الشمس كل يوم على الرمال والنخيل.

وأحسست أن للأمومة طعما آخر، أنها رسالة إلى الآتي، أن أنسا شجرتي التي أغرس في هذه الأرض، وأنني أصنع ثمرها على عين الله، وأنني أمتد في الزمان متجاوزة سني العمر، وفي المكان ملغية كل الحدود. وكان ذلك يترع قلبي حماسا لا يفتر، ويمزج لبان الثدي، فأسقيه أنسا مع عثرات الخطوات الأولى والكلمات الأولى : قل : لا إله إلا الله... قل : أشهد أن محمدا رسول الله.

وبدت الكلمات سعادة العمر كله، وأعذب من أعذب ما أتت به العرب من شعر وغناء، وأجمل من البدر التم في ليالي يثرب الساجية. ولم يخف ذلك على مالك، ولكنه لم يجابه الأمر بمثل ماجابه به إسلامي، فهو، وإن لم يعنف في الحالتين، كان يبدو هنا فاقد الصبر، ضيق الصدر، فيطلق نواهيه وزواجره وأوامره بمزج من التحذير والغضب والحزم : كفي عن هذا... لا تفسدي عليّ ولدي... ولكن كان كلانا موقنا أن فكر الأم بعض من رحيق ثديها، ودفء حضنها، وأنه من العبث محاولة الفصل بينه وبينهما.

ولعل مالكا كان يشعر، على نحو خفي، أن لا دور له في حياة أنس، وأنه مرتحل فمخل بيني وبين ولده، فلم يتعنت ولم يقس، بل راح يلعب الدور المتاح له، وهو يغذ السير بعيدا عنا.

ارتحل مالك إلى الشام ولم يعد... والموت أكثر من ضيف في ذلك الزمان وذلك المجتمع، الموت شريك يندر أن يتخلى عن حصته من كل بيت. ولم تكن النساء يجدن حرجا في استبدال زوج مكان زوج، ولم يكن الرجال يترددون في ضم أرملة أو مطلقة وأولادها إليهم، فقد كانت طبيعة الحياة تفرض ذلك. ولكنني كنت أكثر التصاقا بأنس من أن أسلك سبيل هذا العرف، فأعلنتها : لا جرم... لا أفطم أنسا حتى يدع الثدي، ويجلس مجالس الرجال، ولا أتزوج حتى يأمرني أنس فيقول : قد قضت الذي عليها ■